المنهج التفسيري عند الرازي والطاهر ابن عاشور: دراسة مقارنة في المصادر وأنواع التفسير

أ.د. عبدالرحمن يتيم الفضلي
د. عبدالله صباح الملا
dr.almulla4a@hotmail.com dr.alyteem@gmail.com

The Interpretive Methodology of Al-Razi and Al-Tahir Ibn Ashur: A Comparative Study.

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى دراسة المنهج التفسيري عند فخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب، ومحمد الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير، من خلال مقارنة تحليلية لمنطلقاتهما الفكرية وأدواتهما التفسيرية. يناقش البحث منهجيهما في التفسير بالرأي والنقل، وموقفهما من التأويل وعلم الكلام، ومدى اهتمامهما بالمقاصد الشرعية.

ويكشف البحث عن الفروق بين المدرسة العقلية الجدلية للرازي والمدرسة المقاصدية التجديدية لابن عاشور، مع بيان أوجه الاتفاق والاختلاف. ويخلص إلى أن اختلاف منطلقاتهما المعرفية أدى إلى تباين في نتائجهما التفسيرية، مما يعكس تطور الفكر التفسيري الإسلامي عبر العصور.

Research Summary:

This study aims to examine the exegetical methodology of Fakhr al-Din al-Razi in Mafatih al-Ghayb and Muhammad al-Tahir Ibn Ashur in Al-Tahrir wa Al-Tanwir through a comparative analysis of their intellectual approaches and interpretive tools. The research discusses their methods in rational and transmitted exegesis, their stance on interpretation and theological discourse, and their focus on Sharia objectives.

The study highlights the differences between Al-Razi's rational-dialectical school and Ibn Ashur's objective-oriented reformist approach, while also identifying points of convergence and divergence. It concludes that their differing epistemological foundations led to variations in their interpretive outcomes, reflecting the evolution of Islamic exegetical thought over time.

المقدمة

يُعَدّ التفسير من أشرف العلوم الإسلامية، إذ يرتبط بفهم كلام الله تعالى وتجلية معانيه وهداياته. وقد تباينت مناهج المفسرين تبعًا لاختلاف مدارسهم الفكرية وأدواتهم المنهجية. وفي هذا البحث نسلط الضوء على المنهج التفسيري عند كل من فخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب، ومحمد الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير، من خلال دراسة مقارنة تُبرز الفروقات الجوهرية بين منطلقاتهما العلمية، واتجاهاتهما التأويلية، وأثر بيئتهما في تفسير النص القرآني. كما نبحث في مدى اعتمادهما على العقل والنقل. ومن خلال هذه الدراسة نهدف إلى الكشف عن نقاط الاتفاق والاختلاف بين هذين العَلَمين، مما يثري فهمنا لتطور مناهج التفسير، ويسهم في استجلاء أبعاد جديدة في قراءة النص القرآني عبر العصور.

إشكالية البحث:

ما أوجه التشابه والاختلاف بين تفسير الرازي وابن عاشور من حيث المنهجية، والمصادر، والتناول العلمي للنصوص؟

أسئلة البحث:

١- ما المنهج التفسيري الذي اعتمده كل من الرازي وابن عاشور، وما أبرز الفروقات بينهما؟

٢- كيف أثرت الخلفية العلمية لكل مفسر في تفسيره للآيات؟

٣- ما أوجه الاتفاق والاختلاف بين التفسيرين من حيث اللغة، البلاغة، والتأويل؟

أهمية البحث:

تتجلى أهمية هذا البحث في كونه دراسة مقارنة بين منهجين تفسيريين رائدين يُمثلان مدرستين مختلفتين في الفكر التفسيري الإسلامي، وهما: فخر الدين الرازي ومحمد الطاهر بن عاشور.

١- يسلط البحث الضوء على الفروق المنهجية بين الرازي الذي يمثل التفسير العقلي الجدلي، وابن عاشور الذي يُعد من أبرز أعلام المدرسة المقاصدية التجديدية.

٢- يساهم في توضيح تطور علم التفسير عبر العصور، من خلال مقارنة منهج مفسر من القرن السابع الهجري بآخر من القرن الرابع عشر الهجري.

٣- يساعد الباحِثِينَ في استيعاب أدوات التفسير المختلفة، وما يرتبط بها من تأصيل أو تجديد في قراءة النص القرآني.

٤- يبرز الأثر الفلسفي والكلامي عند الرازي، في مقابل النزعة الإصلاحية والتربوية عند ابن عاشور.

٥- يساهم في إثراء الدراسات القرآنية المعاصرة من خلال تقديم نماذج تفسيرية تجمع بين العمق العلمي والوعي بمتطلبات الواقع.

٦- يعين على فهم العلاقة بين السياق الزمني للمفسر وطبيعة اختياراته التفسيرية، مما يثري النظرة النقدية في التعامل مع التفاسير.

أهداف البحث:

١- إبراز منهج كل من الرازي وابن عاشور في التفسير.

٢- تحليل أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما.

٣- دراسة أثر الخلفية الفكرية لكل منهما في تفسيراتهما.

سبب اختيار الموضوع:

تم اختيار هذا الموضوع انطلاقًا من الرغبة في تسليط الضوء على تنوّع المناهج التفسيرية وثرائها، من خلال دراسة عَلَمَيْن بارزين يمثلان مدرستين مختلفتين في تفسير القرآن الكريم.

١- تمثل شخصية الرازي جانبًا مهمًا من التفسير العقلي الجدلي المتأثر بعلم الكلام والفلسفة.

٢- يعكس ابن عاشور منهجًا مقاصديًا إصلاحيًا يجمع بين الأصالة والتجديد، ويخاطب الواقع بروح معاصرة.

٣- يجمع الموضوع بين مفسرَين ينتميان إلى عصرين مختلفين، مما يتيح دراسة تطور الفكر التفسيري عبر الزمن.

٤- ندرة الدراسات المقارنة التي تناولت المنهجين بشكل تحليلي مباشر، رغم أهمية كلا التفسيرين.

٥- الرغبة في فهم أعمق لكيفية تعامل كل مفسر مع النص القرآني بحسب خلفيته العلمية وظروف عصره.

٦- إبراز أهمية الانفتاح على المناهج المتعددة في التفسير، بما يسهم في تجديد الدراسات القرآنية المعاصرة.

الدراسات السابقة: هناك دراسات سابقة تناولت مقارنة بين تفسيري الرازي وابن عاشور، لكنها غالبًا ما ركزت على جوانب محددة أو سور معينة. على سبيل المثال:

- علم المناسبات عند الرازي وابن عاشور: سورة الكهف أنموذجًا: تستعرض هذه الدراسة مفهوم علم المناسبات وأهميته، وتقارن بين المناسبات التي ذكرها كل من الرازي وابن عاشور في تفسيريهما لسورة الكهف.

- تطبيقات علم المناسبات عند الإمامين الفخر الرازي والطاهر بن عاشور: سورة الحج نموذجًا: تتناول هذه الدراسة تطبيقات علم المناسبات في سورة الحج، وتقارن بين منهجية الإمامين في تفسير هذه السورة.

- استدراكات ابن عاشور على الرازي والبيضاوي وأبي حيان في تفسيره التحرير والتنوير: تستعرض هذه الدراسة ملاحظات ابن عاشور على تفسيرات الرازي والمفسرين الآخرين، مما يعكس منهجه النقدي والتحليلي.

ومع ذلك، يبدو أن دراسة مقارنة شاملة تغطي منهجية التفسير عند الرازي والطاهر ابن عاشور بشكل عام، دون التركيز على سورة معينة أو جانب محدد، لم تُنجز بعد. لذا، فإن إعداد بحث يتناول المنهج التفسيري لكلا المفسرين بشكل عام قد يضيف إسهامًا جديدًا للمكتبة الإسلامية.

ما يضيفه البحث:

التركيز على إبراز المنطلقات والمؤثرات في التفسير عند الرازي وابن عاشور رحمهما الله، مع بيان شيء من السمات المنهجية والبلاغية المحددة لمنهجهما التفسيري.

حدود البحث:

لهذا البحث حدوده من جهة الكتب ومن جهة الموضوع:

أما حدوده من جهة الكتب محل الدراسة، فكتاب مفاتيح الغيب للرازي، كتاب التحرير والتنوير لابن عاشور، وأما حدوده الموضوعية، فالمقارنة بين المفسرين في مصادرهما ومنطلقاتهما وسمات التفسير اللغوية والأسلوبية فيهما.

منهج البحث وخطته:

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد ومبحثين، ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج. وقد جاء في المقدمة: أسئلة البحث، وأهمية الموضوع، وأهدافه، وسبب اختياره، والدراسات السابقة، وما

يضيفه البحث، وحدود البحث، ومنهجه، وخطته.

المبحث الأول: المنطلقات والمصادر والمؤثرات في التفسير عند الرازي وعند ابن عاشور.

المطلب الأول: أهم مصادر المادة التفسيرية عند الرازي وعند ابن عاشور.

المطلب الثاني: التفسير بالمأثور عند الرازي وعند ابن عاشور.

المطلب الثالث: التفسير بالرأي والاجتهاد في منهج الرازي وابن عاشور.

المطلب الرابع: أثر المنطق وعلم الكلام في التفسير عند الرازي وابن عاشور.

المطلب الخامس: موقف الرازي وابن عاشور من الإسرائيليات في التفسير.

المبحث الثاني: السمات اللغوية والأسلوبية في التفسير عند الرازي وعند ابن عاشور.

المطلب الأول: أثر البلاغة في التفسير عند الرازي وابن عاشور.

المطلب الثاني: توظيف السياق في بيان المعنى التفسيري والترجيح عند الرازي وابن عاشور.

المطلب الثالث: أثر القواعد النحوية في بيان المعاني التفسيرية عند الرازي وابن عاشور.

الخاتمة: وفيها عرض لأهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: المنطلقات والمصادر والمؤثرات في التفسير عند الرازي وعند ابن عاشور.

المطلب الأول: أهم مصادر المادة التفسيرية عند الرازي وعند ابن عاشور:

اهتم كل من الفخر الرازي والطاهر ابن عاشور بتفسير القرآن الكريم من خلال الاستفادة من مصادر متعددة، تجمع بين النقل والعقل، وتُظهر تباينًا في المنهج والاهتمام. وفيما يلي عرض لأهم المصادر المشتركة والمصادر الخاصة بكل منهما.

أولاً: المصادر المشتركة بين الرازي وابن عاشور:

نوع المصدر	المصدر	ملاحظات
القرآن الكريم	تفسير الآية بالآية	كلاهما اعتمد عليه كأساس

السنة النبوية	الصحيحان والسنن والمسانيد	الرازي يورد الحديث أحيانًا دون سند، وابن عاشور يتحرى الصحة.
أقوال الصحابة والتابعين	آثار التفسير بالمأثور	كلاهما ذكر أقوالهم، لكن دون التزام حرفي.
أقوال المفسرين	الطبري، الزمخشري، البيضاوي، ابن عطية	الرازي ، وابن عاشور استدركا على بعض المفسرين وخاصة الزمخشري(١).
اللغة العربية	كتب النحو والصرف، والشعر الجاهلي.	كلاهما اهتم بها، وإن كان ابن عاشور أعمق وأدق.
علم البلاغة	عبد القاهر الجرجاني وغيره	الرازي استعمل البلاغة أحيانًا، لكن ابن عاشور بنى تفسيره عليها بشكل محوري.
علم أصول الفقه.	الغزالي، الرازي، الآمدي، الشافعي.	استخدمه الرازي في سياق الجدل العقدي، بينما وظفه ابن عاشور للمقاصد.

(١) انظر أمثلة على استدراك الرازي وابن عاشور على الزمخشري في: مفاتيح الغيب (١/ ٣٥، ٤٨)، التحرير والتنوير (١/٧٣٠)، (٢/٧٥).

ثانيًا: المصادر التي انفرد بها الإمام الرازي:

نوع المصدر	المصدر	ملاحظات
العلوم الطبيعية	ما كان معروفًا مِن الفَلَك والطب والفيزياء.	أورد مسائل علمية تأثرًا بالثقافة العلمية في عصره.

ثالثًا: المصادر التي انفرد بها ابن عاشور:

نوع المصدر	المصدر	ملاحظات
علم المقاصد	الشاطبي (الموافقات)، وتأصيله الخاص.	محور تفسيره، جعله أساسًا في فهم النص.
العلوم الحديثة	إشارات مقتضبة لبعض الحقائق العلمية.	لم يكن ممن يسترسل في تقرير الإعجاز العلمي، لكن انفتح على المعارف المعاصرة.
تحليل الواقع	قضايا الحكم، العلاقات الدولية، الاجتماع.	زاوَجَ بين التفسير والتنظير الحضاري.

ومن خلال ما سبق يتضح أن كلاً من الإمام الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب، وابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، قد اعتمدا على القرآن الكريم من خلال مصادر متعددة، اشتملت على النقل من الكتاب والسنة وأقوال السلف، والاستفادة من أقوال المفسرين السابقين، والاعتماد على اللغة وعلومها. وقد اشتركا في الاعتماد على مصادر كبرى كالطبري والزمخشري وابن عطية، لكن تميز الرازي باستحضار علم الكلام والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية، مما جعل تفسيره

يغلب عليه الطابع الجدلي العقلي.

أما ابن عاشور، فقد انفرد بإدخال علم مقاصد الشريعة وتحليل الواقع الاجتماعي والسياسي، مستفيدًا من التراث الأصولي، خاصة مدرسة الشاطبي، ومن العلوم الإنسانية والتاريخ، مما منح تفسيره طابعًا تجديديًا مقاصديًا معاصرًا.

المطلب الثاني: التفسير بالمأثور عند الرازي وابن عاشور:

يتباين تعامل المفسرين مع التفسير بالمأثور بحسب توجهاتهم العلمية ومنطلقاتهم المنهجية، مما ينعكس على طبيعة اعتمادهم عليه أو تقديم غيره من المناهج، ويُعد كل من الفخر الرازي والطاهر ابن عاشور نموذجين بارزين لهذا التباين، إذ يمثل كل منهما اتجاهًا مختلفًا في فهم النص القرآني وتفسيره، وتبرز أهمية دراسة منهجهما في التفسير بالمأثور لفهم موقفيهما من النصوص النقليّة ومدى توظيفها في خدمة التفسير.

أولًا: منهج الفخر الرازي في التفسير بالمأثور:

اعتمد الفخر الرازي على التفسير بالمأثور في تفسيره، لكنه لم يلتزم به التزامًا صارمًا، بل جعله تابعًا لمنهجه العقلي والكلامي، فقد كان يعرض أحاديث النبي r وأقوال الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، ثم يُعمل فيها النظر العقلي، فيقبل بعضها ويرد بعضها الآخر بحسب توافقها مع أصول عِلْم الكلام والمنطق الذي يتبناه.

ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال رحمه الله: روي أن اليهود قالوا لقريش: اسألوا محمدًا عن ثلاث، فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي: اسألوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح فسألوا رسول الله r عن هذه الثلاثة فقال عليه السلام: غدا أخبركم، ولم يقل: إن شاء الله. فانقطع عنه الوحي أربعين يوما، ثم نزل الوحي بعده: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا * إلا أن يشاء الله﴾ [الكهف: ٢٣–٢٤]، ثم فسَّر لهم قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين، وأبهم أمر الروح بقوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ [الإسراء: ٨٥][1].

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، (٢٦٩/٢)، وأصله عند ابن حبان في صحيحه (٣٠١/١) برقم: (٩٩)، وحسنه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٢٠٩/١) برقم: (٩٩).

ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه:

أولها: معرفة الله أعظم من معرفة الروح، فإذا كانت ممكنة، فلا يُعقل أن يُمنع من معرفة الروح.

ثانيًا: اشتراط النبوة بالإجابة عن قصص مثل أصحاب الكهف وذي القرنين أمر غير منطقي، فهذه مجرد حكايات لا تصلح أن تكون دليلاً على النبوة.

ثالثًا: مسألة الروح معروفة لدى الفلاسفة والمتكلمين، فلو قال النبي إنه لا يعرفها، لكان في ذلك ما يوهم بنقص في علمه، وهو أعلم الخلق.

رابعًا: الله تعالى أثنى على علم النبي r في آيات كثيرة، ووصف القرآن بالشمول، فكيف يُنسب إليه الجهل بأمر منتشر بين الناس؟

ثم ذَكَرَ رحمه الله: أن النبي r أجاب عن سؤال الروح بأفضل بيان، لكن السؤال نفسه كان يحتمل معاني متعددة، فاقتصر الجواب على ما يناسب الحكمة والمقام(١).

وفيما سبق ذِكْره يتبين أن الزاري رحمه الله يَعْرِضُ المأثورَ ثم يُخضعه للمنهج الكلامي الذي يرى أن ظاهر النص غير مراد. وهذا يدل على ميله إلى التفسير العقلي وتوسيع دائرة الدلالة بما يراه أرجح من حيث اللغة والسياق.

ثانيًا: منهج الطاهر ابن عاشور في التفسير بالمأثور:

أما الطاهر ابن عاشور، فقد سلك مسلكًا دقيقًا في التعامل مع المأثور، حيث جعله مصدرًا أساسيًا في تفسيره، لا سيما إذا صح سنده أو كان صادرًا عن الصحابة، وقد حرص الطاهر على توظيفه في بيان أسباب النزول وتوضيح المعاني الغامضة، لكنه لم يقف عند حدود النقل، بل زاوَجَه بتحقيقٍ لغويٍّ وبلاغيٍّ ومقاصديٍّ.

فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح﴾: قال رحمه الله: سألت قريش النبي r عن الروح بإيعازٍ من اليهود، فنزل قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح﴾، وجاءت الرواية أن هذا السؤال وقع أولًا منفردًا، ثم تكرر ضمن ثلاثة أسئلة أخرى مع سؤال عن أهل الكهف وذي القرنين، فأُجيب عن الروح في سورة الإسراء، وعن السؤالين الآخرين في سورة الكهف. وقد أثار ذلك إشكالًا في سبب الفصل بين الأجوبة، ويُجاب بأنه يجوز أن تكون آية الروح نزلت أولًا ثم أعيد تلاوتها، أو ألحقت بسورة الإسراء. كما أن ما ورد في صحيح البخاري عن سؤال اليهود

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٩١).

بالمدينة[1] لا يناقض الرواية الأولى، بل قد يكون النبي r انتظر وحيًا أوضح لظنه أنهم أقرب لفهم معنى الروح، فأنزل الله الآية نفسها ليبيّن أن علم الخلق بالروح محدود، سواء كانوا من قريش أو من أهل الكتاب[2].

ثالثًا: أوجه الاتفاق والافتراق بينهما:

رغم اختلاف المنهجين، إلاّ أن بين الرازي وابن عاشور نقاطًا مشتركة، أهمها: اعتماد كل منهما على التفسير بالمأثور دون إلغائه، وممارستهما النقد العلمي للروايات، وحرصهما على الترجيح بين الأقوال. ومع ذلك، يبرز الفارق في أن الرازي أَخْضَعَ المأثورَ لرؤيته العقلية والكلامية، وجعله تابعًا للبرهان العقلي، بينما ابن عاشور ضبط المأثور بموازين التحقيق الحديثي واللغوي والمقاصدي، واستخدمه في دعم نظرية عامة في تفسير النص القرآني من خلال مقاصده وبلاغته.

المطلب الثالث: التفسير بالرأي والاجتهاد في منهج الرازي وابن عاشور.

يُعد التفسير بالرأي والاجتهاد أحد المناهج الرئيسة في تفسير القرآن الكريم، وقد اختلفت طرق المفسرين في توظيفه بحسب خلفياتهم العلمية ومقاصدهم التفسيرية، ويبرز كل من الفخر الرازي والطاهر ابن عاشور كمثالين بارزين لهذا الاتجاه، حيث وظَّفَ كلٌّ منهما الاجتهاد بطريقته الخاصة، وتأتي هذه الدراسة لبيان معالم منهجهما في التفسير بالرأي، وأوجه الاتفاق والافتراق بينهما.

أولًا: منهج الفخر الرازي في التفسير بالرأي والاجتهاد:

يُعد الفخر الرازي من أبرز المفسرين الذين اعتمدوا على التفسير بالرأي والاجتهاد العقلي، بل جعل هذا المنهج هو الغالب على تفسيره، فقد كان شديد العناية بتحليل الألفاظ، واستنباط المعاني، وربطها بالقضايا الفلسفية والكلامية. كما كان يوظّف أدوات علم المنطق وأصول الفقه في تحليل النص القرآني، ويسترسل أحيانًا في تقرير مسائل عقلية قد لا يكون لها صلة مباشرة بظاهر الآية، لكن يرى أنها من لوازم الفهم العميق للنص.

(١) يشير إلى حديث عبد الله t، قال: بينا أنا أمشي مع النبي r في خرب المدينة، وهو يتوكأ على عسيب معه، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؟ وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يجيء فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم: لنسألنه، فقام رجل منهم، فقال يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه، فقمت، فلما انجلى عنه، قال: «(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتوا من العلم إلا قليلا)، أخرجه البخاري، (١/٣٧) برقم: (١٢٥).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٥/ ١٩٦).

ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [البقرة: ٦٠].

قال رحمه الله عند ذِكْـرِه السؤال الثاني: ورد في القرآن الكريم في موضع قوله تعالى: ﴿فَانفَجَرَتْ﴾، وفي موضع آخر: ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وقد يُفهم من ظاهر اللفظين وجود تعارض، إذ إن الانفجار يدل على خروج الماء بكثرة، بينما الانبجاس يدل على خروجه بقلّة. ثم أجاب رحمه الله عن هذا الإشكال بعدة أوجه، فقال:

أولاً: أن الفَجْر في أصل اللغة يدل على الشق، والانفجار هو الانشقاق الواسع الذي يصاحبه خروج غزير للماء، ومن هذا المعنى سُمّي الفاجر لخروجه عن الجماعة وشقه عصا الطاعة. وأما الانبجاس فهو يدل على شق ضيّق وخروج قليل للماء. وعلى هذا، فإن بين اللفظين عمومًا وخصوصًا، ولا تعارض بينهما من جهة الدلالة.

ثانيًا: من الممكن أن الماء انبجس أولاً، أي: بدأ بالخروج القليل، ثم انفجر بعد ذلك فازداد غزارته، كما هو الشأن في كثير من العيون التي يظهر ماؤها ضعيفًا في البداية ثم يقوى تدريجيًا بفعل الاستمرار والانسياب.

ثالثًا: لا يُستبعد أن يكون اختلاف حال خروج الماء مرتبطًا بحال حاجة بني إسرائيل؛ فحين كانت حاجتهم شديدة انفجر الماء، أي: خرج بغزارة، وإذا خفّت الحاجة اقتصر الأمر على الانبجاس، أي: خروج قليل من الماء، وذلك من تمام العناية الإلهية وتقديرها لمصالحهم»[1].

وفيما مرَّ يظهر الرازي توظيفه الرأي والاجتهاد في التفسير، وذلك من خلال الجمع بين التحليل اللغوي والاجتهاد العقلي. فقد فسّر اختلاف اللفظين بما يوافق السياق وطبيعة الحال دون خروج عن دلالة النص.

ثانيًا: منهج الطاهر ابن عاشور في التفسير بالرأي والاجتهاد:

أما الطاهر ابن عاشور، فقد جعل التفسير بالرأي والاجتهاد أصلًا من أصول تفسيره، لكنه مارَسَه ضمن ضوابط لغوية وشرعية ومقاصدية، بعيدًا عن الجدل الكلامي أو الاسترسال الفلسفي. وكان يعتبر الرأي والاجتهاد ضرورة لفهم النص القرآني في ضوء تطور اللغة والمجتمع، مؤكدًا على أن

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٣/ ٥٢٩).

القرآن نزل لهداية الناس كافة في كل زمان.

ويظهر هذا بوضوح في تفسيره لقوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٠٥]

حيث استخرج منها رحمه الله عدداً من الفوائد برأيه واجتهاده، ومن ذلك:

١- أن في الآية» إشارة إلى أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفضي إلى التفرق والاختلاف إذ تكثر النزعات والنزغات وتنشق الأمة بذلك انشقاقا شديدا»(١).

٢- أن «حكم هذه الآية يعم سائر المسلمين: إما بطريق اللفظ، وإما بطريق لحن الخطاب، لأن المنهي عنه هو الحالة الشبيهة بحال الذين تفرقوا واختلفوا»(٢).

٣- قدم الافتراق على الاختلاف للإيذان بأن الاختلاف علة التفرق وهذا من المفادات الحاصلة من ترتيب الكلام وذكر الأشياء مع مقارناتها(٣).

٤- في الآية « إشارة إلى أن الاختلاف المذموم والذي يؤدي إلى الافتراق، وهو الاختلاف في أصول الديانة الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضا، أو تفسيقه، دون الاختلاف في الفروع المبنية على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار والأعصار، وهو المعبر عنه بالاجتهاد»(٤).

ونلاحظ هنا أن ابن عاشور استنبط من الآية الكريمة هذه الفوائد بإعمال الاجتهاد والرأي، فهو يستفيد من الرأي الممدوح في فهم النصوص القرآنية.

ثالثًا: أوجه الاتفاق والافتراق بينهما:

يشترك الرازي وابن عاشور في اعتمادهما على الرأي والاجتهاد، واعتبارهما أن النص القرآني لا يُفهم إلا في ضوء إعمال الفكر والنظر العقلي. كما اتفقا على أن الاقتصار على ظاهر المأثور لا يكفي في بيان مراد الله تعالى، إلاّ أنّ منهج كل منهما قد اختلف في الأسس والغايات:

فالرازي وظّف الرأي لخدمة الأغراض الكلامية والفلسفية، وأدخل في تفسيره كثيرًا من مباحث المنطق وعلم الكلام.

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٤٣).
(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٤٤).
(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٤٤).
(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٤٤).

بينما ابن عاشور وظّف الاجتهاد لخدمة مقاصد القرآن من خلال التحليل البلاغي والاجتماعي والتشريعي، فكان رأيه أقرب إلى التوسط والانضباط بالشريعة.

المطلب الرابع: أثر المنطق وعلم الكلام في التفسير عند الرازي، وموقف ابن عاشور منه.

من أبرز ما يميز بعض التفاسير القرآنية هو حضور الخلفية العقدية والفلسفية للمفسر، لا سيما في توظيفه لعلم الكلام والمنطق في فهم النص القرآني وتأويله. وقد برز في هذا الميدان كل من الفخر الرازي - الذي يُعد من كبار المتكلمين - والطاهر ابن عاشور الذي تعامل مع هذه العلوم بتحفّظ وانتقائية. وفيما يلي بيان مدى أثر المنطق والكلام في تفسير كل منهما، وأوجه الاتفاق والاختلاف بين منهجيهم.

أولًا: منهج الفخر الرازي في توظيف علم الكلام والمنطق:

كان الفخر الرازي من كبار أئمة المتكلمين في القرن السادس الهجري، وقد غلب على تفسيره الطابع الكلامي والمنطقي، حتى قيل: إن تفسيره فيه كل شيء إلا التفسير(١). فقد جعل علم الكلام أداة لفهم النص القرآني، بل لإثبات العقائد والرد على الفرق المخالفة، مستعينًا بقواعد المنطق والبرهان العقلي، ومن أبرز معالم منهجه:

* استخدامه المكثّف للمقدمات العقلية والقياسات المنطقية قبل تفسير الآية.
* تأويله للنصوص المتشابهة بما يوافق أصول المتكلمين.
* توجيه المعاني بما ينسجم مع العقائد الأشعرية.

ومن الأمثلة على ذلك تفسيره لقوله تعالى: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١٢٥)}

قال الرازي: « واعلم أن الدعوة إلى المذهب والمقالة لا بد وأن تكون مبنية على حجة وبينة، والمقصود من ذكر الحجة، إما تقرير ذلك المذهب وذلك الاعتقاد في قلوب المستمعين، وإما أن يكون المقصود إلزام الخصم وإفحامه»(٢)، ثم تكلم الرازي عن مراتب الدعوة المذكورة، فبين أن: المرتبة الأولى هي: الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية، وذلك هو المسمى بالحكمة.

(١) أورد هذه العبارة أبو حيان في تفسيره، انظر: البحر المحيط (١/ ٥٤٧).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٨٦/٢٠).

والثانية: الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية، وهي الموعظة الحسنة.

وثالثها: الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامهم، وذلك هو الجدل(١).

وهذه التعريفات يظهر فيها التأثر بالصناعات الخمس المعروفة في علم المنطق، فقد نزَّل الرازي ثلاثاً منها على ما ذكرته الآية الكريمة، وبمقارنة يسيرة بين كلامه وكلام المفسرين قبله نجدهم يعرفون هذه المراتب من جهة مفهومها اللغوي والشرعي(٢).

ثانيًا: منهج الطاهر ابن عاشور في التعامل مع علم الكلام والمنطق:

أما الطاهر ابن عاشور، فكان واعيًا لأثر علم الكلام في التفسير، لكنه لم يجعله محورًا رئيسًا في تفسيره، بل تعامل مع علم الكلام بتحفظ، مستحضرًا منه ما يعزز المعنى دون أن يطغى على روح النص أو يعطل دلالته، وقد حرص على التوفيق بين العقل والنقل، مع الانتصار لظاهر النص ما لم يقم دليل قوي على التأويل.

ويتضح ذلك في تفسيره للآية السابقة نفسها، حيث فسّر الحكمة بأنها: المعرفة المحكمة، أي: الصائبة المجردة عن الخطأ، فلا تطلق الحكمة إلا على المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم الناس وفي تهذيبهم. وأما الموعظة الحسنة فهي عنده: القول الذي يلين نفس المقول له لعمل الخير. وأمَّا الجدال بالتي هي أحسن فهي: الاحتجاج لتصويب رأي وإبطال ما يخالفه أو عمل كذلك(٣).

ويُلاحظ أن ابن عاشور لا يُكثر من المصطلحات الكلامية، ولا يسترسل في الجدل العقلي، بل يميل إلى الإيجاز والاعتدال، ويُقدّم المقاصد العامة للآيات على الخوض في التفاصيل الجدلية.

ثالثًا: أوجه الاتفاق والافتراق بينهما:

يتفق الرازي وابن عاشور في اعتبار العقل وسيلة لفهم النصوص، وضرورة التحرر من الجمود على الظواهر التي قد تؤدي إلى التشبيه أو الضلال، كما يشتركان في رفض التفسير الحرفي

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٢٠/٢٨٧).

(٢) انظر: جامع البيان للطبري (١٧/٣٢١)، معالم التنزيل للبغوي (٥/٥٢)، حيث كانت الحكمة عندهم وحي الله الذي يوحيه إليك، والموعظة الحسنة العبر الجميلة وتعداد النعم على العباد، والترغيب والترهيب والمجادلة بالتي هي أحسن هي التي لا ينال فيها لشخص من الأعراض، مع الإعراض عن أذاهم.

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٤/٣٢٧-٣٢٨).

للنصوص المتشابهة المتعلقة بالذات الإلهية.

غير أن الفارق الجوهري بينهما يكمن في حجم حضور علم الكلام في كل تفسير:

فقد جعل الرازي علم الكلام ركنًا أساسًا في تفسيره، وأدخل من خلاله مسائل دقيقة من أصول العقائد، وأحيانًا قدّم العقل على ظاهر النقل.

بينما ابن عاشور لم يجعل علم الكلام مرجعًا دائمًا، بل استخدمه بقدر ما يخدم المعنى دون أن يُضعف الأثر البياني والتربوي للنص، مؤثرًا الاعتدال والرجوع إلى قواعد اللغة والمقاصد الشرعية.

ويكشف هذا التباين عن اختلاف المقاصد والمنطلقات العلمية بينهما، مما يُبرز أهمية دراسة أثر الخلفية العقدية والفكرية في توجيه المفسر للنص القرآني.

المطلب الخامس: موقف الرازي وابن عاشور من الإسرائيليات في التفسير:

تُعد الإسرائيليات من أبرز القضايا التي شغلت المفسرين، لِما لها من أثر في تفسير القصص القرآني وأخبار الغيب، وقد اختلفت مواقف العلماء منها بين قابل ورافض، بحسب المنهج العلمي والمقاصد العقدية التي ينطلقون منها. ويبرز في هذا السياق موقف كل من الإمامين الرازي وابن عاشور في تفسيريهما، إذ يمثل كل منهما اتجاهًا مميزًا في التعامل مع هذه المرويات. وفيما يلي بيان منهج كل منهما في التعامل مع الإسرائيليات، مع عرض أمثلة توضح الفروق الجوهرية بينهما.

أولًا: موقف الإمام الرازي من الإسرائيليات:

لم يكن الرازي ممن يكثر من الاعتماد على الإسرائيليات، لكنه لم يرفضها رفضًا قاطعًا دائما، بل اختلف تعامله معها، فتارة يُناقشها ويردَّها، وتارة يذكرها بدون أي مناقشة.

ومثال مناقشته ورَدِّهِ للروايات الإسرائيلية: عند تفسيره لقوله تعالى: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ } [ص: ٢١].

قال الرازي: « وأقول للناس في هذه القصة ثلاثة أقوال أحدها: ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه. وثانيها: دلالتها على الصغيرة. وثالثها: بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة.

فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها: أن داوود عشق امرأة أوريا، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة

بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه. فحكم داوود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبا، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة. والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه»[١].

ثم ذكر وجوها في بطلانها:

الأول: أن هذه القصة يتنزه عنها أفسق الفساق فكيف بنبي.

الثاني: أن محصل القصة تبرير القتل والسعي فيه والطمع في زوجة مسلم، وهذا لا يقع فيه نبي للعصمة[٢].

ومثال ذِكْرِه للروايات الإسرائيلية بدون مناقشة أو تحقيق مفصل لها، ما ذَكَرَه في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [البقرة: ٢٤٨].

قال الرازي: « قال أصحاب الأخبار: إن الله تعالى أنزل على آدم عليه السلام تابوتا فيه صور الأنبياء من أولاده، فتوارثه أولاد آدم إلى أن وصل إلى يعقوب، ثم بقي في أيدي بني إسرائيل، فكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم، وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر وهم يقاتلون العدو فإذا سمعوا من التابوت صيحة استيقنوا بالنصرة، فلما عصوا وفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوه، فلما سألوا نبيهم البينة على ملك طالوت، قال ذلك النبي: إن آية ملكه أنكم تجدون التابوت في داره، ثم إن الكفار الذين سلبوا ذلك التابوت كانوا قد جعلوه في موضع البول والغائط، فدعا النبي عليهم في ذلك الوقت، فسلط الله على أولئك الكفار البلاء حتى إن كل من بال عنده أو تغوط ابتلاه الله تعالى بالبواسير، فعلم الكفار أن ذلك لأجل استخفافهم بالتابوت، فأخرجوه ووضعوه على ثورين فأقبل الثوران يسيران ووكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما، حتى أتوا منزل طالوت، ثم إن قوم ذلك النبي رأوا التابوت عند طالوت، فعلموا أن ذلك دليل على كونه ملكا لهم، فذلك هو قوله تعالى: إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت»[٣].

(١) مفاتيح الغيب (٣٧٧/٢٦).
(٢) انظر: مفاتيح الغيب (٣٧٧/٢٦).
(٣) مفاتيح الغيب (٥٠٦/٦).

ثانيًا: موقف الإمام ابن عاشور من الإسرائيليات:

ابن عاشور أكثر تحفظًا وانتقادًا للإسرائيليات من الرازي، وقد صرّح في مواضع عديدة برفضه لها، خاصة ما لا أصل له أو ما يخالف العقل والنقل.

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} [الصافات: ١٠١، ١٠٢]

حيث ذكر أنه شاع عن أهل الكتاب أن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، « بناء على ما جاء في «سفر التكوين» في «الإصحاح» الثاني والعشرين وعلى ما كان يقصه اليهود عليهم»[١].

وقد ردَّ ابن عاشور قولهم هذا ، وبين أن « التأمل في هذه الآية يقوي الظن بأن الذبيح إسماعيل عليه السلام»، وساق عشرة أدلة على ذلك[٢].

وفي بعض المواضع يحكي الوارد منها دون أن يتعقبه، ومن ذلك ما ذكره في معنى التابوت في الآية السابقة، حيث قال: « والتابوت بمعنى الصندوق المستطيل: وهو صندوق أَمَرَ موسى عليه السلام بُصْنِعِه، صَنَعَه بصلئيل الملهم في صناعة الذهب والفضة والنحاس ونجارة الخشب، فصنعه من خشب السنط- وهو شجرة من صنف القرظ- وجعل طوله ذراعين ونصفا وعرضه ذراعا ونصفا وارتفاعه ذراعا ونصفا، وغشاه بذهب من داخل ومن خارج، وصنع له إكليلا من ذهب، وسبك له أربع حِلَق من ذهب على قوائمه الأربع، وجعل له عصوين من خشب مغشاتين بذهب لتدخل في الحلقات لحمل التابوت، وجعل غطاءه من ذهب، وجعل على طريق الغطاء صورة تخيل بها اثنين من الملائكة من ذهب باسطين أجنحتهما فوق الغطاء»[٣]. وهنا ذَكَر ابن عاشور هذه الرواية بدون أي تعقب لها، وهو ما يخالف عادته عند ذِكْر الإسرائيليات.

ثالثًا: أوجه الاتفاق والافتراق بينهما:

يتفق الإمامان في رفض ما خالف العقيدة من الإسرائيليات، فكلاهما يرفض الروايات الإسرائيلية التي تتضمن ما لا يليق بالله تعالى أو أنبيائه، أو تخالف العقيدة الإسلامية، مع ملاحظة أنهما قد يختلفان في تقدير هل الرواية مما يتضمن ما لا يليق بالأنبياء أو لا[٤]. ومما اتفقا عليه عدم

(١) التحرير والتنوير (١٥٧/٢٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٣/ ١٥٧- ١٥٩).

(٣) التحرير والتنوير (٤٩٣/٢).

(٤) كما عمل ابن عاشور في نقله تفاصيل قصة داوود عليه السلام المذكورة في تفسير سورة ص.

الاعتماد عليها في تقرير العقائد أو الأحكام الفقهية.

واتفقا أيضًا على جواز إيراد بعضها في القصص بشرط التنبيه أو التمحيص، على أن يكون من باب الاستئناس أو التفصيل، بشرط عدم الجزم بصحتها، والتنبيه إلى ضعفها أو احتمال بطلانها.

أما أوجه الافتراق بينهما:

الموقف العام: الرازي: متساهل نسبيًا في التعامل مع الروايات الإسرائيلية، وكذلك ابن عاشور لكنه أكثر إيرادا لتفاصيلها من الرازي.

طريقة العرض: الرازي: يورد الروايات أحيانًا دون رد أو بتعليق فلسفي أو احتمالي، وأما ابن عاشور: فيوردها محكية عن أهل الكتاب وينقل من كتبهم تفاصيلها.

الاعتماد على الروايات: الرازي: يستخدمها أحيانًا كأدوات تفسيرية محتملة، وكذلك ابن عاشور: يستفيد منها أحيانا في توضيح سياق الآيات.

التأثر بالموروث التفسيري: الرازي: نقل عن المفسرين قبله كثيرًا دون غربلة شديدة، أما ابن عاشور: فقد نقل عن أهل الكتاب من كتبهم في الغالب بلا واسطة رواة الإسرائيليات المشهورين في كتب التفاسير[1].

المبحث الثاني: السمات اللغوية والأسلوبية في التفسير عند الرازي وابن عاشور.

المطلب الأول: أثر البلاغة في التفسير عند الرازي وابن عاشور.

تُعد البلاغة من أهم العلوم التي استعان بها المفسرون في بيان إعجاز القرآن وعمق دلالاته، وقد تفاوتت عناية المفسرين بها بحسب تكوينهم العلمي واهتماماتهم. ويبرز كل من الفخر الرازي والطاهر ابن عاشور في الإفادة من هذا العلم، مع اختلافٍ ظاهرٍ في المنهج والاتجاه.

أولًا: منهج الفخر الرازي في البلاغة القرآنية:

كانت عناية الرازي بالبلاغة جزءًا من اهتمامه العام بإظهار الإعجاز القرآني، إلاّ أن تعامله مع البلاغة اتسم في الغالب بالنزعة التحليلية والعقلية. وقد تناول الجوانب البلاغية بطريقة منطقية،

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢/ ٦٨)، وممن بيَّن ذلك الدكتور محمد رزق الطرهوني في كتابه التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا (٢/ ٧٥٠)، حيث يقول: « والمصنف إذ ينعى على التفسير بالمأثور إغراقه في الإسرائيليات ونقلها عن أئمة أهل الكتاب ممن أسلم أمثال عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - ووهب بن منبه وكعب ابتكر تعاملا جديدا معها وهو النقل المباشر من الأسفار".

وغالبًا ما كان يربط بين التراكيب البلاغية ومعانيها العقلية أو الفلسفية، ومن أبرز معالم منهجه:

* تحليله للتركيب البلاغي في ضوء المقاصد العقلية.
* بيان الفروق الدقيقة بين الألفاظ القريبة المعنى.

ومن الأمثلة على ذلك، في تفسيره لقوله تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [يس: ٢٠]

قال الرازي: « قوله: من أقصى المدينة فيه بلاغة باهرة»(١).

ثم ذكر من البلاغة في ذلك:

١- أن المجيء من أقصى المدينة دليل على بلوغ الدعوة ذلك المكان.
٢- أن التسلية لقلوب أصحاب محمد من مقصودات الآية.
٣- أن تنكير رجل فيه تعظيم شأنه وظهور الحق عن طريق المرسلين.
٤- أن التعبير بالسعي فيه الحث على بذل الجهد في النصح.
٥- أن التعبير في نداء قومه بلفظ (يا قوم) فيه كمال شفقته عليهم.
٦- في قوله: (اتبعوا المرسلين) إظهار أنه آمن ونصيحة لقومه(٢).

والملاحظ أن هذه الأمور المذكورة ترجع لعلم المعاني بشكل كبير، وقد رتبها الرازي تسلسلياً حسب ألفاظ الآية الكريمة.

ثانيًا: منهج الطاهر ابن عاشور في البلاغة القرآنية:

أما الطاهر ابن عاشور، فقد أظهر عناية فائقة بالبلاغة، وجعلها أحد أهم أدواته في تفسير القرآن. وكان منهجه قائمًا على البلاغة بمعناها الواسع: تحليل الأسلوب، والنظم، والتقديم والتأخير، والفروق الدقيقة بين الألفاظ، وقد استفاد من التراث البلاغي العربي، خاصة من عبد القاهر الجرجاني ومنهج دلائل الإعجاز، ومن أبرز سمات منهجه البلاغي:

* التركيز على السياق القرآني في تحليل الأسلوب.
* بيان المقاصد التربوية والشرعية من وراء الأساليب البلاغية.
* استخدام البلاغة لتقريب المعنى للقارئ، وربطها بواقع الحياة.

(١) مفاتيح الغيب (٢٦/٢٦٢).
(٢) انظر: مفاتيح الغيب (٢٦/٢٦٢-٢٦٣).

مثال ذلك، في تفسيره لقوله تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [يس: ٢٠]

فقد ذكر ابن عاشور أموراً في الآية تدل على اعتنائه بالسياق وبيانه المقاصد التربوية ومن ذلك:

١- أن «المراد بالمدينة هنا نفس القرية المذكورة في قوله: (أصحاب القرية) [يس: ١٣] عبر عنها هنا بالمدينة تفننًا».

٢- فائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة.

٣- جملة {قال يا قوم} بدل اشتمال من جملة «جاء رجل» لأن مجيئه لما كان لهذا الغرض كان مما اشتمل عليه المجيء المذكور.

٤- افتتاح خطابه إياهم بندائهم بوصف القومية له قصد منه أن في كلامه الإيماء إلى أن ما سيخاطبهم به هو محض نصيحة لأنه يحب لقومه ما يحب لنفسه(١).

وهكذا نرى ابن عاشور اعتنى بتحليل السياق، وبيان الدلالات التربوية للكلمات في الآية الكريمة.

ثالثًا: أوجه الاتفاق والافتراق بينهما:

اتفق الرازي وابن عاشور على أهمية البلاغة في فهم النص القرآني، واستخدما أدواتها في بيان دقة الألفاظ وتماسك السياق. كما اشتركا في إبراز ما في الأسلوب القرآني من إعجاز، لكن:

الرازي استخدم البلاغة بشكل عقلاني وتحليلي، وغالبًا لخدمة المعاني الجدلية أو الفلسفية.

أما ابن عاشور فقد استخدمها بأسلوب أدبي دقيق، وربطها بالمقصد التربوي والتشريعي للآية، وجعلها وسيلة لتذوق النص لا مجرد وسيلة عقلية لفهمه.

وهذا التباين يُظهر بوضوح أثر الخلفية الفكرية واللغوية في تشكيل المنهج التفسيري عند كل منهما.

(١) التحرير والتنوير (٢٢/٣٦٥-٣٦٦).

المطلب الثاني: توظيف السياق في بيان المعنى التفسيري والترجيح عند الرازي وابن عاشور.

يُعَدُّ السياق من أهم الأدوات التي تُعين المفسر على بيان المعنى الصحيح للنص القرآني، وقد وظّفه كثير من المفسرين في تفسيرهم وترجيحهم بين الأقوال. ويظهر هذا التوظيف جليًّا عند الرازي في وابن عاشور في تفسيريهما، كلٌّ بحسب منهجه واتجاهه التفسيري.

أولاً: منهج الرازي في توظيف السياق:

يميل الرازي إلى استخدام السياق اللغوي والمعنوي العام للآيات في بيان المعنى، لكنه لا يقدّمه دائماً على الأدلة العقلية أو النقلية، بل يراه مساعدًا في بعض المواضع.

والرازي يورد الاحتمالات المتعدّدة وبعضها مأثور، وبعضها مستنبط، ثم يختار أحدها.

ومن أمثلة ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [البقرة: ١٨٩]

فقد ذكر الرازي في كلامه عن سياق الآية الكريمة مناسبة آخر هذه الآية، وهو قوله تعالى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ، لأولها وهو قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}.

وذكر قول أكثر المفسرين أنه « روي أنه في أول الإسلام كان إذا أحرم الرجل منهم فإن كان من أهل المدن نقب في ظهر بيته منه يدخل ويخرج»[١].

ثم قال: « إلا أن على هذا التقدير صعب الكلام في نظم الآية»[٢]، ثم ذكر تقديرات أخرى، وهي:

الأول: أن الله تعالى لما ذكر أن الحكمة في اختلاف أحوال الأهلة جعلها مواقيت للناس والحج، وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبروها في الحج تكلم الله تعالى فيه.

الثاني: أنه اتفق وقوع القصتين في وقت واحد فنزلت الآية فيهما معا في وقت واحد.

الثالث: أنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة فقيل لهم: اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم وارجعوا إلى ما البحث عنه أهم لكم فإنكم تظنون أن إتيان البيوت من

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٥/٢٨٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٥/٢٨٦).

ظهورها بر وليس الأمر كذلك[1].

وهكذا نرى أن الرازي اعتنى ببيان السياق للآية الكريمة، وأثره في فهم أجزائها.

ثانيًا: منهج ابن عاشور في توظيف السياق:

ابن عاشور جعل للسياق مكانة محورية في تفسيره، واعتبره وسيلة حاسمة في الترجيح بين الأقوال. ويوظف أنواعًا متعددة من السياقات: اللغوي، المقامي، السياق التاريخي، وسياق السورة العام.

ومن أمثلة ذلك في قوله تعالى: { وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ} [فاطر: ١٢] فقد بين ابن عاشور الجمع بينها وبين قوله تعالى: {وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ } [النحل: ١٤]، ولماذا قدم الجار والمجرور على مواخر في آية سورة فاطر بخلاف آية سورة الأنعام.

قال ابن عاشور: «وتقديم الظرف في قوله: { فِيهِ مَوَاخِرَ} على عكس آية سورة النحل، لأن هذه الآية مسوقة مساق الاستدلال على دقيق صنع الله تعالى في المخلوقات وأدمج فيه الامتنان بقوله: (تأكلون).... (وتستخرجون حلية) وقوله: (لتبتغوا من فضله) فكان المقصد الأول من سياقها الاستدلال على عظيم الصنع فهو الأهم هنا. ولما كان طفو الفلك على الماء حتى لا يغرق فيه أظهر في الاستدلال على عظيم الصنع من الذي ذكر من النعمة والامتنان قدم ما يدل عليه وهو الظرفية في البحر»[2].

ثالثًا: أوجه الاتفاق والاختلاف بين الرازي وابن عاشور:

يتفق الرازي وابن عاشور في إدراك أهمية السياق في التفسير، ويظهر ذلك في تعليلاتهم وتفصيلاتهم عند شرح الآيات، إلا أن الفرق بينهما واضح في درجة الاعتماد عليه وطريقة توظيفه.

فالرازي يوظف السياق ضمن مجموعة من الأدوات التفسيرية، لكنه لا يعدّه حاسمًا في الترجيح، بل قد يُعرض عنه إذا تعارض مع دليل عقلي أو مذهبي.

أما ابن عاشور فيجعل السياق أداةً رئيسية في فهم النص، بل يعتبره مفتاحًا أساسًا للتفسير الصحيح، ويظهر هذا في استحضاره لجو السورة وأسباب النزول وربط المقاطع بعضها ببعض، وذلك واضح في مقدماته التي يكتبها للسور القرآنية يتكلم فيها عن أغراضها، ثم يبدو ذلك

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٢٨٦/٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨٠/٢٢).

الاستحضار واضحاً عند تفسيره للسورة كلها(١).

كما أن ابن عاشور يميل إلى حسم الترجيح بناءً على السياق، بينما الرازي يتردد أحيانًا في الترجيح، بسبب تغليبه للتحليل العقلي وميله إلى عرض الآراء دون ترجيح قاطع في بعض المواضع.

المطلب الثالث: أثر القواعد النحوية في بيان المعاني التفسيرية عند الرازي وابن عاشور:

تُعد القواعد النحوية من الأدوات الأساسية التي يعتمد عليها المفسرون في استنباط المعاني القرآنية الدقيقة، وقد تميز كل من الرازي وابن عاشور بعناية خاصة بهذا الجانب، لكن منهجهما يختلف من حيث الغاية والطريقة، وفيما يلي بيان ذلك.

أولًا: منهج الرازي في توظيف القواعد النحوية في بيان المعاني التفسيرية:

تميّز الرازي بكثرة استحضاره للمباحث النحوية في تفسيره، مستفيدًا منها في كشف دلالات الألفاظ وتوجيه المعاني، فقد اعتمد على النحو بوصفه وسيلة لفهم تركيب الجملة القرآنية وتأويل ألفاظها، وكان يعرض مذاهب النحويين المختلفة – خصوصًا البصريين والكوفيين – مع الميل إلى الترجيح بينها بناءً على الصناعة النحوية.

ومن أبرز ملامح منهجه:

* الاهتمام بالإعراب وتغيير المعنى تبعًا له، حيث يرى أن اختلاف الإعراب يؤدي إلى اختلاف المعنى، فيدقق في موقع الكلمة وعلاقتها بما قبلها وبعدها.

* الاستدلال النحوي في الجدل العقدي، إذ يستخدم النحو للرد على الأقوال التي يراها مخالفة للعقيدة، معتبرًا فساد الإعراب دليلاً على بطلان القول.

* الاحتكام إلى النحو في الترجيح التفسيري، فيرجّح بين المعاني بحسب ما يستقيم نحويًا.

ومن أمثلته، قوله في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} [البقرة: ٨٣].

(١) وكلامه رحمه الله في أغراض السور في أول تفسير كل سورة، انظر مثالاً: التحرير والتنوير (١١/٧٨، ٣١٢).

حيث قال: « اختلفوا في موضع «يعبدون» من الإعراب على خمسة أقوال:

القول الأول: قال الكسائي: رفعه على أن لا يعبدوا كأنه قيل: أخذنا ميثاقهم بأن لا يعبدوا إلا أنه لما أسقطت «أن» رفع الفعل ...

القول الثاني: موضعه رفع على أنه جواب القسم، كأنه قيل: وإذ أقسمنا عليهم لا يعبدون، وأجاز هذا الوجه المبرد والكسائي والفراء والزجاج وهو أحد قولي الأخفش.

القول الثالث: قول قطرب: أنه يكون في موضع الحال فيكون موضعه نصبا كأنه قال: أخذنا ميثاقكم غير عابدين إلا الله.

القول الرابع: قول الفراء إن موضع «لا تعبدون» على النهي إلا أنه جاء على لفظ الخبر كقوله تعالى: {لا تضار والدة بولدها} [البقرة: ٢٣٣] بالرفع والمعنى على النهي.

القول الخامس: التقدير أن لا تعبدوا تكون «أن» مع الفعل بدلا عن الميثاق، كأنه قيل: أخذنا ميثاق بني إسرائيل بتوحيدهم»[١].

وهكذا يورد المعاني المترتبة على اختلاف الإعراب في الآية الكريمة.

ثانيًا: منهج ابن عاشور في توظيف القواعد النحوية في بيان المعاني التفسيرية:

أما ابن عاشور فقد سلك في تفسيره مسلكًا تجديديًا، يوظف فيه النحو توظيفًا متزنًا يخدم البلاغة والمقاصد القرآنية، ولم يكن يَعْرِض الخلافات النحوية لمجرد العرض، بل ينتقي ما له أثر واضح في بناء المعنى أو تعزيز السياق.

من أبرز ملامح منهجه:

* دمج النحو بالبلاغة، حيث يعتبر أن النحو يضيء جوانب بلاغية في التركيب القرآني، فيستخدمه لفهم إعجاز التعبير لا لمجرد التحليل الفني.

* توجيه الإعراب بحسب المقاصد والسياق، فهو لا يتقيد بالتفصيلات النحوية إلا إذا كانت ذات صلة واضحة بالمعنى المقصود.

* الاقتصار على ما له ثمرة دلالية، مظهرًا بُعدًا تربويًا ومقاصديًا في استخدام القواعد.

ومن الأمثلة قوله في تفسير قوله تعالى: {وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ} [البقرة: ١٧٧].

(١) مفاتيح الغيب (٥٨٥/٣).

قال ابن عاشور: «ونصب (الصابرين) وهو معطوف على مرفوعات نصب على الاختصاص على ما هو المتعارف في كلام العرب في عطف النعوت من تخيير المتكلم بين الإتباع في الإعراب للمعطوف عليه وبين القطع قاله الرضي، والقطع يكون بنصب ما حقه أن يكون مرفوعا أو مجرورا وبرفع ما هو بعكسه ليظهر قصد المتكلم القطع حين يختلف الإعراب إذ لا يعرف أن المتكلم قصد القطع إلا بمخالفة الإعراب، فأما النصب فبتقدير فعل مدح أو ذم بحسب المقام، والأظهر تقدير فعل أخص لأنه يفيد المدح بين الممدوحين والذم بين المذمومين»(١). ثم ذكر فوائد هذا الإعراب، ومنها بيان خصيصة الصابرين وفضلهم(٢).

ثالثًا: أوجه الاتفاق والاختلاف بين الرازي وابن عاشور في توظيف النحو:

الاتفاق بينهما:

* كلاهما يرى أن القواعد النحوية مفتاح لفهم المعاني القرآنية.
* كلاهما يستخدم النحو في الترجيح بين الأقوال التفسيرية.
* كلاهما يستشهد بآراء كبار النحويين، ويحرصان على دقة الصناعة اللغوية.

الاختلاف بينهما:

* الرازي يُعلي من شأن الجدل النحوي، ويستفيض في ذلك، أحيانًا دون ربطها بالسياق.
* ابن عاشور يوظف النحو في خدمة المعنى البلاغي والمقاصدي، ويتجنب غالباً الإسهاب في الخلافات النحوية.

(١) التحرير والتنوير (١٣٣/٢).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٣٣/٢).

الخاتمة

وفيها عرض لأهم النتائج والتوصيات.

أهم النتائج:

١- أبرزت هذه الدراسة الموجزة نقاط الالتقاء والافتراق بين التفسيرين في مصادر المادة التفسيرية والتفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.

٢- أظهرت الدراسة أثر الخلفية الفكرية والعلمية لكل مفسر في منهجه التفسيري، فقد رأينا أثر الخلفية العقلية على الرازي في تفسيره، كما رأينا أثر الخلفية في العلوم اللغوية والمقاصدية على ابن عاشور في تفسيره.

التوصيات:

١- يوصي الباحث بمزيد من الدراسات المقارنة لمناهج المفسرين من مدارس تفسيرية مختلفة بحيث تراعي هذه الدراسات إبراز أثر تلك المدارس على المفسرين.

٢- كما يوصي الباحث بالاهتمام بمنهج ابن عاشور في تفسيره لمواكبة قضايا العصر.

المصادر والمراجع

١- البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ

٢- التحرير والتنوير«تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

٣- التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذه من محفوظه، مؤلف التعليقات: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار با وزير للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٤- التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا

المؤلف: محمد بن رزق بن عبد الناصر بن طرهوني الكعبي السلمي أبو الأرقم المصري المدني، أصل هذا الكتاب: رسالة دكتوراة، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ

٥- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٦- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

٧- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٠٥ هـ.

٨- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣

٩- مفاتيح الغيب, المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ), الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت, الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

١٠- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.